

الشيخ الغزالي وشواذ ابن مسعود (2-2)

بقلم: د. عبد الآخر حماد

أشرت في مقال سابق إلى مواقف تستحق الذكر في حياة الشيخ الغزالي رحمه الله، وذكرت أنها مما ينبغي إشاعته والحديث عنه، وأما كتاباته التي تدور في نفس الفلك فهي كثيرة، بل لا نبالغ إذا قلنا إن أكثر مؤلفاته خصوصاً في مراحل الأولى رحمه الله كانت ذباً عن حياض الإسلام ورداً لأفكار باطلة وشبهاتٍ حول هذا الدين العظيم، وسوف أشير إشارات سريعة إلى بعض تلك الكتابات.

1- فمن كتاباته المبكرة في الدفاع عن الإسلام وحقائقه الثابتة كتابه (من هنا نعلم) الذي كتبه في أوائل الخمسينيات من القرن الميلادي المنصرم رداً على كتاب (من هنا نبدأ) للأستاذ خالد محمد خالد الذي دعا فيه إلى فصل الدين عن الدولة، تحت زعم أن الدين يجب أن يبقى في مكانة عالية بعيدة عن السياسة وألأعيبها، وقد جاء رد الغزالي من أقوى الردود التي نشرت على ذلك الكتاب، وقد تراجع الأستاذ خالد رحمه الله بعد ذلك عن آرائه تلك في كتاب نشر في أوائل الثمانينات عنوانه: (الدولة في الإسلام).

2- وفي الخمسينيات أيضاً نُشر كتاب للمستشرق المجري جولد تسيهر بعنوان (العقيدة والشريعة في الإسلام) يتهجم فيه على الإسلام زاعماً أن القرآن ليس وحياً من عند الله، وإنما هو مزيج من معارف وآراء دينية استقاها محمد بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، ثم صاغها وزعمها وحياً من عند الله، وقد نال هذا المستشرق ما يستحقه من قلم الشيخ الغزالي، وذلك في كتابه: (دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين)، ففند شبهاته تفصيلاً علمياً في بعض المواضع، ولكنه في مواضع أخرى رأى أن ذلك المستشرق قد بلغ من الوقاحة حداً ينبغي معه تأديبه بالشديد من

القول والحادّ من الكلام ، ومن ذلك أن المستشرق المذكور قد زعم أن الأحاديث المروية في كتب السنة لم يقلّ منها النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل لأنه - في زعم جولد تسيهر - لم يكن يدري أن دينه سينتشر في بقاع الأرض ، ولذلك فإن المسلمين لما فتحوا البلدان من بعده حكموا تلك البلدان بما فيها من تقاليد وقوانين بعد أن حوروها ثم جعلوها أحاديث نسبوها لنبيهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم - في زعم ذلك المستشرق - كسائق سيارة مألها بجالون من البنزين ليسير بها عشرين ميلاً أو ثلاثين ميلاً ، ثم ينتهي الوقود وتقف الرحلة ، وعلى من يريد استئناف السير بعد ذلك أن يجيء بوقود من عنده فقد نفذ البنزين ومات السائق ، وقد رد الشيخ الغزالي على هذا الهراء بما يناسبه حيث قال : ((لا شك أن المستشرق المجري شرب جالوناً من الخمر عندما سطر هذا اللغو)). [دفاع عن العقيدة والشريعة ص : 65] .

3- وفي فترة الستينيات هال الشيخ رحمه الله ما رآه من انتشار المد الشيوعي في كثير من بلاد المسلمين ، وأنها استهوت لفيماً من الشباب في البلدان العربية والإسلامية من فارغي العقول والأفئدة ، فكتب كتابه (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) أودع فيه كثيراً من الحقائق التاريخية حول مخازي الشيوعية وما ارتكبته من آثام وبخاصة ضد المسلمين في الاتحاد السوفيتي وغيره ، وكان الشيخ يعلم أنه بكتابته لتلك لحقائق العلمية والتاريخية ، سيتعرض - كما قال في مقدمة ذلك الكتاب - لعداوات مميتة ، غير أنه يقول : ((ولكن بنُست الحياة أن نبقي ويفنى الإسلام ، إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد ... وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مرأً ، وأن لا يخشوا في الله لومة لائم)). .

4- وفي حقبة السبعينيات قذف بكتابه (قذائف الحق) ، في وجه من سماهم بسماسرة الغزو الثقافي في بلادنا ، الذين امتلكوا ناصية التوجيه في سراء الأمة وضرائها ، والذين يجاهرون بعدم العودة إلى الكتاب والسنة ويبشرون بحكم يخسر فيه الإسلام أصوله وفروعه ، وفي ذلك الكتاب يفضح أيضاً مؤامرات المتعصبين من غير المسلمين الذين

يسعون بكل السبل للنيل من الإسلام وأهله ، ومنعهم من حقهم الطبيعي في العيش تحت ظلال شريعتهم الغراء ، ويعلنها الشيخ صراحة : ((وأيّاً ما كان الأمر فنحن المسلمين مستمسكون بحقنا في تطبيق شريعتنا، والاستقلال برأية الإسلام في شئوننا كافة، ولن نقبل نظاماً يسارياً ملحداً، ولا نظاماً مستورداً يسوى بين الأضداد، بين الكفر والإيمان، بين العفة والعهر، بين المعبد والخان، باسم الحرية)).

مثال للخلل في فهم تراث الغزالي:

أكتفي بهذه الإشارات السريعة حول مؤلفات الغزالي رحمه الله لأفسح المجال لحديث سريع أيضاً حول كتاب قرأته أخيراً - مع أنه مطبوع منذ عشرين عاماً - وهو كتاب خصصه صاحبه للدفاع عن الشيخ الغزالي والرد على منتقديه ، لكنه يصلح مثلاً ظاهر الدلالة على ما كنا قد أشرنا إليه من الخلل الواضح في تعامل البعض مع تراث الشيخ الغزالي رحمه الله، بل لا أبالغ إن قلت إن الكتاب أساء إلى الشيخ الغزالي من حيث أراد الدفاع عنه.

الكتاب عنوانه : (دفع الشبهات عن الشيخ الغزالي) للدكتور أحمد حجازي السقا، وفيه يرد على كتابين انتقدا الشيخ الغزالي رحمه الله بعد ظهور كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) أحدهما كتاب الشيخ سلمان العودة (وقفات هادئة مع الغزالي) ، والثاني كتاب بعنوان (كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها) للشيخ ربيع المدخلي.

ولست أريد في مثل هذه العجالة أن أتعرض لتفاصيل ما جاء في الكتاب المشار إليه ، ولكنني أشير إلى نقطتين مهمتين :

1- أما النقطة الأولى فهي أن الفكرة الرئيسية التي يبدو من خلال سطور الكتاب أنها كانت مسيطرة على ذهن كاتبه هي أن أولئك السعوديين إنما ينتقدون الشيخ الغزالي لسبب واحد هو أنه انتقد مذهبهم السلفي وانتصر لمذهب الأشاعرة الذي يدرس في

الأزهر، فهو يقول في ص: 227 من الكتاب المشار إليه: ((وبينا أن علماء السلف في المملكة العربية السعودية قد ألفوا كتباً ضد الأستاذ الإمام محمد الغزالي ليس لأنه نقد أحاديث فقط، بل لأنه نقد المذهب السلفي وبين أنه لا يصلح لهداية الناس إلى الله، وهم يزعمون أن مذهبهم هو الحق الذي لا ريب فيه... وهم قد هاجموا الأستاذ الإمام محمد الغزالي لأنه بنقده لمذهبهم سيوقف نمو المذهب السلفي في عقر داره، وفي العالم، وسيمكن لمذهب الأشاعرة في مصر والعالم، فهم لم يهاجموا الأستاذ الإمام في الحقيقة وإنما يهاجمون الأزهر، فقضية هذا الكتاب هي قضية مذهب ضد مذهب، لا قضية أشخاص ضد أشخاص، السعوديون يريدون الإمامة والصدارة في العالم، والأزهريون يريدون الإمامة والصدارة في العالم)) إلى أن قال: ((وإني أقترح على ولاة الأمور في كل بلد أن يمنعوا كتب المذهب السلفي من الانتشار بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك لأنها تشوش على تعاليم القرآن الكريم)).

إن المؤلف المذكور يزعم أن الخلاف بين الغزالي وبين المدرسة السعودية خلاف بين الأشاعرة والسلفيين، وهو تصنيف فيه من التسطيح ومجافاة الحقيقة ما فيه؛ فالغزالي ومنذ كتاباته المبكرة متأثر متأثراً واضحاً بالمنهج السلفي، وذلك واضح في كتابه عقيدة المسلم، بل إنه ما كتب ذلك الكتاب إلا لما لمسه من خلل واضح في مناهج التوحيد الأشعرية التي تدرس في الأزهر، فهو يذكر في مقدمة ذلك الكتاب أن تلك المناهج نظرية بحتة لا تهتم بمخاطبة القلب ولا تستثير العاطفة والوجدان ويقول: ((كنت أرقب عن كذب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة، فما كنت أجد فارقاً يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلاً، كلاهما تروض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد)).

وأكثر من ذلك يقرر الغزالي في (عقيدة المسلم ص: 35) وما بعدها أنه في مسائل الصفات يميل إلى منهج السلف؛ فهو يقول: ((وأنا شخصياً أؤثر مذهب السلف، وأرفض أن يشتغل العقل الإسلامي بالبحث المضني فيما وراء المادة، وأرتضى قبول

الآيات والأحاديث التي تضمنت أوصافاً لله جل شأنه دون تأويل)) ويقول: ((فكل ما قطعنا بثبوتها في كتاب الله وسنة رسوله مما وصف الله به نفسه وأسندته إلى ذاته قبلناه على العين والرأس، لا نتعسف له تأويلاً، ولا نقصد به تجسيماً ولا تشبيهاً)).
أنا أعلم أن كتاب (عقيدة المسلم) لم يخل من نفس أشعري وبخاصة في الترتيب والتبويب، وأنه يهون من شأن الخلاف في مسألة الصفات ويلتمس عذراً للأشاعرة ومن نحا نحوهم في التأويل، ويرى أنهم ما قصدوا بذلك إلا تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث، لكن ذلك كله لا يعني أبداً صحة ما ذهب إليه الدكتور السقا من أن الخلاف بين الشيخ الغزالي ومنتقديه من السعوديين هو خلاف بين الأشاعرة والسلفيين، فالغزالي - كما رأينا - لم يكن يتبنى مذهب الأشاعرة، وإن اقترب منهم في بعض المواضع .

كما أننا نجد الشيخ الغزالي في قضايا الألوهية يتفق مع أولئك السلفيين الذين يزعم الدكتور السقا أنه ينتقد منهجهم، ففي كتابه (عقيدة المسلم) فصل جميل بعنوان: (توحيد العامة وما يعلوه من غبار)، بين فيه ضلال أولئك الذين يبنون المساجد على القبور ويتمسحون بقبور الأولياء وينذرون لها النذور، وأنهم يأتون من الأفعال ما يستحقون عليه الجلد بالسياط لا الزجر بالكلام، كما ناقش فيه شبهات القائلين بجواز التوسل بأولئك المقبورين من خلال رده على رسالة جاءته من أزهرى مفادها أن أحد العلماء الرسميين - أي في مصر - يقول بوجود التوسل بأصحاب القبور، وأنه لا حرج في ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل، فرد الشيخ رحمه الله على تلك الشبهات وفندها.

وفي كتابه: (ليس من الإسلام) يقرر مثل هذا وينقل - مستحسناً - فتوى للشيخ الباقورى - حين كان وزيراً للأوقاف - في تحريم اتخاذ القبور مساجد، وهي الفتوى التي أشاد بها الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، وشكر لأجلها الشيخ الباقورى وأثنى عليه في مقدمة كتابه: (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد)، فهل يقال فيمن هذا شأنه

أنه يريد أن يهدم المنهج السلفي لصالح المنهج الأشعري؟

أما ما اشتهر عن الشيخ الغزالي في سنواته الأخيرة من انتقاداته اللاذعة لبعض الاتجاهات السلفية، فإن الشيخ لم يكن يزعم أنه بذلك يحارب السلفية، وإنما كان يرى أن هذه المظاهر التي ينتقدها لا تمثل السلفية الحققة، وقد بين ذلك في كتابه: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، وكذلك كتابه علل وأدوية وبخاصة في فصل (السلفية التي نعرف ونحب) وغير ذلك، وبغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع الشيخ إلا أننا نقول: إن كون الشيخ ينتقد بعض السلفيين شيء، وكونه يحارب السلفية لمصلحة المذهب الأشعري - كما زعم الدكتور السقا - شيء آخر، وليس هناك تلازم بينهما.

والذي أراه أن الشيخ الغزالي قد تأثر بالمنهج السلفي والمنهج الأشعري كليهما، بل تأثر بغيرهما من المدارس والاتجاهات الإسلامية، لكننا لا نستطيع تصنيفه في واحدة منها، فمن كلٍ قد أخذ، ومن كلٍ قد استفاد .

2- أما الجزئية الثانية التي أود الحديث عنها فهي أننا نعلم أن مما انتقد على

الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى رده لبعض الأحاديث الصحيحة، وهي أحاديث تعد على الأصابع، لكن الدكتور السقا في معرض دفاعه عن الغزالي لا يكتفي بتأييد الشيخ في ما ذهب إليه من رد لتلك الأحاديث القليلة، بل يفاجئنا بإحدى الطامات، وهي أنه - وبحسب ما يظهر من كلامه - يدعو للاكتفاء بالقرآن الكريم؛ ونبذ السنة المطهرة جملة، وذلك أنه في ص: 230 من كتابه المشار إليه ذكر حديث أبي جحيفة:

(سألت علياً رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ - وقال ابن عيينة مرة: ما ليس عند الناس؟ - فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهماً يعطى رجل في كتابه، وما في الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل [أي الدية]، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر). [أخرجه البخاري (111)، (6915)].

ثم علق عليه بقوله : ((هذا الحديث يخزي السلفيين وبيكتهم وهم لا يشعرون ؛ فإنه يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك للناس أحاديث يعملون بها، وإنما ترك القرآن والصحيفة ، فمن أين أتت هذه الأحاديث التي تبلغ الآلاف))
ولا شك أن فهم المؤلف لهذا الحديث فهم سقيم، فعلي رضي الله عنه لم يقصد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك من الأحاديث إلا ما في تلك الصحيفة ، وإنما قصد أنه لم يخص آل بيته بشيء من الوحي دون غيرهم ، وذلك واضح من صيغة سؤال أبي جحيفة له : (هل عندكم شيء مما ليس في القرآن)، وفي رواية أخرى عند البخاري (3047): (هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله)، وفي رواية ابن عيينة : (ما ليس عند الناس)، وفي صحيح مسلم (1978) عن أبي الطفيل عامر بن وائلة قال : (سئل علي : أخصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ فقال: ما خصنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء لم يعم به الناس كافة إلا ما كان في قراب سيفي هذا، قال: فأخرج صحيفة مكتوب فيها: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده ، ولعن الله من آوى محدثاً).
وإنما سأل أبو جحيفة علياً عن ذلك كما يقول الحافظ ابن حجر: ((لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت - لا سيما علياً - أشياء من الوحي خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بها لم يطلع غيرهم عليها)) [فتح الباري : 204/1]
وقال الإمام النووي في شرح مسلم (156/5): ((هذا تصريح من علي رضي الله عنه بإبطال ما تزعمه الرافضة والشيعة ويخترعونه من قولهم: إن علياً رضي الله عنه أوصى إليه النبي صلى الله عليه وسلم بأمر كثيرة من أسرار العلم وقواعد الدين وكنوز الشريعة ، وأنه صلى الله عليه وسلم خص أهل البيت بما لم يطلع عليه غيرهم، وهذه دعاوى باطلة واختراعات فاسدة لا أصل لها ، ويكفي في إبطالها قول علي رضي الله عنه هذا)).

ولو كان معنى الحديث هو ما فهمه الدكتور السقا لما كان الحديث مخزياً
للسلفيين وحدهم كما زعم، بل إنه يكون مخزياً للشيخ الغزالي أيضاً؛ فإنه - وإن رد
كما أسلفنا بعض الأحاديث - إلا أنه كان مدافعاً عن السنة المطهرة، وله مواقف
طيبة في الرد على أعدائها، ومن ذلك قوله في كتابه (دستور الوحدة الثقافية ص:
25): ((تواجه السنة النبوية هجوماً شديداً في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم
والإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعى الاكتفاء بالقرآن وحده. ولو تم
لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعاً؛ فإن القضاء على السنة
ذريعة للقضاء على الدين كله))

ولن يفرح بتأويل الدكتور السقا لذلك الحديث إلا أولئك الذين يسمون أنفسهم
بالقرآنيين الذين يبدو أنه يميل إلى مذهبهم الباطل، فقد أشار في أول كتابه هذا إلى
كتاب (أضواء على السنة المحمدية) للمدعو محمود أبي رية، الذي هاجم فيه
الصحابي الجليل أبا هريرة والذي طعن فيه في كتب السنة الصحيحة، فكان مما قاله
عن ذلك الكتاب: ((لقد قرأت كتاب أضواء على السنة المحمدية للشيخ محمود أبو
رية رحمة الله عليه، وهو كتاب يطعن في البخاري ومسلم، ويهز الثقة في كتب
الأحاديث كلها بحجج قوية جداً لا يستطيع أي عالم أن يضعفها لينقض قوله، ولو
اقتنع المسلمون السنيون برأيه لاكتفوا بالقرآن وحده في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم
ونبذوا كتب السنة)). [دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي ص: 14].

فيا لله العجب: أي تخليط هذا وأي تضليل؟ إذ كيف سيؤدي المسلمون صلاتهم
بعد نبذهم لكتب السنة؟ وكيف سيؤدون حجهم؟ وكيف سيعرفون معنى الربا
ليجتنبوه في معاملاتهم؟ وهل يعرف المسلمون تفاصيل ذلك وغيره إلا من سنة نبيهم
صلى الله عليه وسلم؟

نسأل الله تعالى أن يقينا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن.

عبد الآخر حماد

1431/4/23هـ

موقع الرحمة

www.rahmah.de